1

متلازمة بريدجت جونز

أقلق على «بريدجت جونز»، وأقلق بسبب مساهمتي في سقوطها. «بريدجت جونز»، بطلة مذكرات بريدجت جونز، الرواية الأكثر رواجاً للكاتبة «هيلين فيلدينغ». بدأت بالظهور في عمود جريدة أسبوعية في عام 1995. وأدت شعبية ذلك العمود إلى ظهور الرواية التي أدت بدورها إلى ظهور مسلسل «بريدجت جونز: حافة الرشد (العقل)» الذي صور لاحقاً وأصبح أكثر الأفلام الإنكليزية شعبية.

«بريدجت جونز»، شخصية ذكية، عملت في البداية في النشر، ثم في التلفزيون، وهي في الثلاثين من العمر، عازبة مما ما جعلها غير سعيدة، وهذا ما يحدد شخصيتها مثل الكثيرات من صديقاتها العازبات، كان هاجسها العثور على رجل، وقادها ذلك إلى هوس الرغبة في الزواج والبحث عن زوج وأب لأطفالها في المستقبل.

أصبحت بريدجيت جونز المثل الأعلى للفتيات الشابات وغير الشابات في كل العالم وليس في بريطانيا فقط. بيع من النسخة الأولى من الكتاب أكثر من أربعة ملايين نسخة في ثلاثين دولة. تشير المقالات النقدية التي أغدقت المديح على الكتاب والمبيعات الكبيرة أن بريدجيت تصف شيئاً حقيقياً وجوهرياً[1] للنساء اليوم.

أكثر من ثلاثين عاماً مضت قبل الحمل بـ «بريدجت جونز». بكلمات أخرى في الوقت الذي تم الحمل بها بيولوجياً (إذا كان من الممكن اعتبار إمكانية حمل الشخصيات في القصص بيولوجياً). واجهت «بيتي فريدان» المُؤسِسة للحركة النسائية الحديثة)[2] بشجاعة «المشكلة التي لا اسم لها» وعبّرت عنها بما يلي:

بقيت المشكلة مدفونة، غير مذكورة، لسنوات عديدة في أذهان النساء الأميركيات. كان قلقاً غريباً، الشعور بعدم الرضا، توق وحنين عانت منه النساء في منتصف القرن العشرين... لم يكن هناك أي ذكر لهذا الحنين لأكثر من خمسة عشرة عاماً في الملايين من الكلمات التي كُتبت عن النساء للقراء من النساء في كل المقالات والكتب، التي كتبها الخبراء الذين يقولون للنساء إن دورهن هو البحث عن الرضا الذاتي كزوجات وأمهات. سمعت النساء مراراً وتكراراً أنه لا يمكنهن الرغبة في قدْر أكثر من الاعتزاز بأنوثتهن ... تعلمن أن الإناث الحقيقيات لا يرغبن بأية مهنة، أو تعليم عالي، أو حقوق سياسية في الاستقلالية والفرص التي حاربت لأجلها الحركة النسائية المحافظة.

إن النقاش في هذا الكتاب هو أن هناك مشكلة جديدة ليس لها اسم تواجه النساء اليوم. ينتج عن هذه المشكلة رغبة وعدم رضا عميقين. كُتب في الثلاثين أو الأربعين عاماً الماضية القليل عن ذلك الشعور بالحنين وعدم الرضا. قيل للنساء أنه عليهن التماس الرضا في مهنة ما، قيل لهن مراراً أن أعظم قَدَر لهن هو التألق في عالم التجارة والمجال العام وأنهن يملكن الاستقلالية والفرص الوافرة في المهن المختلفة، وفي التعليم العالي والسياسة. إن مشكلة اليوم التي لا اسم لها هي حقيقة أن كل هذا لم يخلص النساء من ذلك الحنين وعدم الرضا بل جعله أسوأ بأشواط كثيرة.

في الفصل الأخير من كتابها، كشفت «بيتي فريدان» عن «القطعة الأخيرة من الأحجية» وهي السبب الذي يبقي النساء في مكانهن، محجوزات ضمن شرك أنوثتهن عوضاً عن التقاط الفرص في سوق العمل: «إن مفتاح ذلك الشرك بالطبع هو التعليم». إن التعليم هو أيضاً مفتاح مشكلة اليوم التي لا اسم لها. تنمو الفتيات عبر دراستهن ويصبحن نساء اليوم، يتعلمن دروس الاستقلالية والمساواة مع الفتيان ويتجاوزن أهمية مهنتهن. إذا وجب مواجهة المشكلة فعليهن التركيز على التعليم.

صاغت فريدان عبارة «اللغز النسوي» لوصف ما رأت أنه المشكلة التي واجهت النساء في الستينات. كانت المشكلة، كما اعتقدت، هي «أن النساء قد منعن من النمو إلى الحد الأقصى من إمكانيتهن الإنسانية». وأنهن قد حُرمن من الوصول إلى أهدافهن، ومن الشعور بالرضا واكتشاف الذات بذلك اللغز المضلل حول الأنوثة والأمومة، وكونهن ربات منزل. لوصف مشكلة اليوم المعاكسة صغت عبارة «متلازمة بريدجت جونز».

> تختتم «بيتي فريدان» كتابها بتفاؤل خيالي (واسع) بالقول أن النساء واثقات من أنهن يملكن العالم، وأن هذا العالم يمتد ويتوسع حتى تجعلهن جهودهن يدركن من يكن. لن يحتجن إلى اهتمام فتى أو رجل للشعور بكونهن أحياء. وعندما تشعر النساء أنهن لسن بحاجة للحياة من خلال أزواجهن أو أطفالهن، من يدري كيف يمكن للنساء أن يصبحن عندما يكن أحرار بأنفسهن؟ من يدري ما يمكن أن يساهم ذكاء وفكر النساء...؟[3].

بالفعل، من يدري؟ فقد صدف، أن «هيلين فيلدينغ»، التي أوجدت «بريدجت جونز»، ألّفت بالفعل كتاباً عن امرأة تتوسع وتتوسع إلى أقصى حد في إمكانياتها ولخصت ذلك بهذه الكلمات: «كان كتابي الأول عن امرأة تدير مخيم لاجئين في إفريقيا، لم يشتره أحد. أما كتاب «مذكرات بريدجت جونز» فهو عن امرأة تكافح لإنقاص وزنها وقد اشترته أربع ملايين امرأة حول العالم»[4].

توقعت «بيتي فريدان» متفائلة أنه «قريباً لن يكون باستطاعة اللغز النسائي حجب الصوت الداخلي الذي يدفع النساء ليصبحن كاملات». وبعد أربعين عاماً، لم تُغلق رمز الشابات «بحث النساء عن الذات» نساء «فريدان» الكاملات، بل كانت امرأة، ولم تتمكن من الحصول على اللغز النسائي ولكنه أصبح جذاباً، إلا أن صوتها الداخلي كان يصرخ طالباً الخلاص من استقلاليتها.

بعد أربعين عاماً من أفكار «فريدان» المتفائلة، استبدت بالشابات فكرة «اهتمام شاب أو رجل للشعور بكونهن أحباء» بعد وصولهن إلى سن الثلاثين وما فوق وبعد حصولهن على مهنة وعلاقات جنسية حرة أكثر من ذي قبل. كان مثلهن الأعلى شابة تأخذ قرارات أنها لن تمضي حياتها بائسة لعدم حصولها على صديق بل سوف «تنمي توازنها الداخلي وثقتها وشعورها بالذات كامرأة ذات قيمة وكاملة بدون وجود صديق». (تتنهد فريدان براحة) وأن هذه أفضل طريقة للحصول على زوج.

بعيداً عن كونه الطريق المؤدي إلى إطلاق تحرير الذات، أصبح الذهاب إلى العمل «مثل الذهاب إلى حفل كي تلتقي أحد ما»، ولكن في العمل يوجد الكثير من «النساء العازبات فوق الثلاثين من العمر. نماذج طبيعية جيدة لا تستطيع الحصول على رجل». إن المثل الأعلى الجديد للنساء تستبد به فكرة الحصول على رجل ولكن أثبت إجراء استبيان أن «شباب الأمة لا يفكرون في الزواج»، كما أن الثورة الجنسية تركت المرأة مجردة من الطرق للتعامل مع الرجل. بعد الموعد الأول وبعد أن تكون المرأة قد استسلمت بسهولة لرغباته الجنسية، تنتظر بحزن جانب الهاتف، «كيف يمكن أن يبقى الموقف بين الجنسين بعد الليلة الأولى غير متوازن بهذا الشكل المؤلم، أشعر بأنني قد كنت في اختبار وعلي انتظار النتيجة». ولا يمكن لكل الكتب في العالم عن مساعدة الذات التي وصلت أفكارها إليها عن طريق أصدقائها العازبين أن توقفها عن منع رجل من استغلالها.

تصبح الحياة في «متلازمة بريدجت» جونز محنة أليمة كل يوم «تفحص بدقة وجهها بحثاً عن التجاعيد، تتحقق من عُمر كل شخص بحثاً عن نماذج مشابهة (تبلغ جين سيمور الثانية والأربعين!)». وصلت إلى مرحلة من الحياة حيث الرجال في ذات المرحلة «لا يجدون الأشخاص في ذات المرحلة جذابون». تصبح الحياة فجأة مثل لعبة الكراسي حيث تصبح الفتاة التي ليس

لديها كرسي/رجل، عند اجتيازها سن الثلاثين، خارج اللعبة. تنظر بريدجت جونز إلى الأيام الماضية بحزن عندما كانت ترتدي قميص، معطف قصير وجزمة ومع ذلك كانت تتلقى تعليقات استحسان بذيئة ومخجلة: لكن في الوقت الحالي عند ارتدائها ذات اللباس المغري لا تتلقى أياً منها للأسف.

يهذي أصدقاؤها قائلين «إن الكثيرات من النساء يضيعن شبابهن بإنجاب الأطفال وهن في العشرين، الثلاثين وأوائل الأربعين من العمر في الوقت الذي ينبغي فيه عليهن التركيز على حياتهن المهنية»، ولكن عندما يصحو المرء، تبدو الحياة فارغة. من يريد حياة مهنية عندما لا يكون لديك رجل ولا تستطيعين الحصول على طفل منه؟ إن متلازمة بريدجت جونز هي الرغبة في الحصول على طفل أكثر من أي شيء آخر.

فعندما تظن خاطئة أنها حامل يتولد لديها شعور جامح بأنها «امرأة خصبة!» ولكن بسبب عدم شعورها بالأمان في علاقاتها، والتزام الرجال في تلك العلاقات، تثبط ذلك الشعور مع الخوف أن تصبح «امرأة بشعة وأن أكون آلة لإنتاج الحليب لا يرغب فيها أحد ولا أستطيع ارتداء ملابسي وخاصة الجينز الأخضر الجديد من صنع آجنس ب». تظن أن هذا الارتباك هو الثمن الذي عليها أن تدفعه لكونها «امرأة عصرية» وتحاول أن تغري نفسها بتلك الأفكار بأنها على حافة ثورة «المرأة العصرية»، وأنها تستطيع الحصول على المتعة، في بيتها ومن دخلها الخاص، وأنه ليس عليها أن تغسل جوارب أحد. وهي تواسي نفسها بأنها فرد من «الجيل الرائد الذي يرفض التسوية في الحب والذي يعتمد على قوة دخله الخاص»، تنطق بكلمات فريدان الباليه التي عفا عليها الزمن. وتأمل أن يصبح كل شيء حسناً في غضون عشرين عاماً [5].

كان هذا ما ظنته «فريدان» في عام 1963، ثم في عام 1981 في كتابها الثاني، «المرحلة الثانية». اعتقد أنه قد آن الأوان لوضع حد لهذا والقول أنه خلال عشرين عاماً لن تكون الأمور جيدة. إن المشكلة الجديدة التي لا اسم لها ـ متلازمة بريدجيت جونز ـ ومصدرها في تعليم الفتيان والفتيات يجب مواجهتها بسرعة. هذا هو هدف هذا الكتاب. أنه يضع المتلازمة في سياق الكتابات النسائية عن التعليم وبشكل أوسع في سياق الإصلاحات التي غيرت التعليم إلى شكل لا يمكن التعرف إليه. إن الكتاب يتساءل عما إذا كان ارتكاب ذلك الظلم الكبير بحق النساء يعود إلى الحركة النسائية. يقلق البعض من أن بعض الظلم يرتكب بحق الفتيان في المدارس[6]. إن الجدل في هذا الكتاب يدور حول ارتكاب ظلم أكثر خطورة بحق الفتيات وهذا ما يدفعهن إلى المرور عبر المرحلة التعليمية بدون أي ضرر وبتفوق على عكس الفتيان ـ لكن هذا الضرر يظهر عندما يكبرن في السن، عندما يصلن إلى عمر «بريدجت جونز».

قد يظن بعض القراء أنني انجرفت بحماس مع تلك الشخصية، التي هي رغم سحرها، شخصية وهمية. ربما أن معاناتها قد استحوذت علي. ولكن كما تبين لم تخطئ أربعة ملايين امرأة. إذ تشير الاستبيانات بعد الأخرى إلى ذات الاتجاه. إن المجلات النسائية مليئة بقصص عن عدم سعادة النساء في الوقت الحاضر وباستبيانات لمعرفة السبب. «توب سانت ـ مجلة الصحة والجمال الأكثر مبيعاً في المملكة المتحدة»، تكشف على سبيل المثال في استبيان صيف 2001 أن 9 % من النساء العاملات (4 % لديهن أطفال دون سن المدرسة) يقلن أنهن اخترن العمل بدوام كامل. في الحقيقة، إذا أعطين الخيار، فإن 78 % من النساء العاملات سيتركن وظائفهن إذا استطاعن، ونسبة مماثلة تقول أن عملهن يؤذي صحتهن، «وتسبب بعض الأمراض مثل أوجاع الرأس، والإعياء الدائم، وأوجاع الظهر، والقلق، والنسيان، وعدم القدرة على النوم، وحركة أمعاء مزعجة ومرض الشقيقة». ويقول التقرير إن الحياة العائلية قد دفعت إلى نقطة الانهيار بسبب طريقة الحياة الحالية للمرأة[7].

obeikandl.com

المجلات النسائية هي الوحيدة التي تؤيد ذلك الإدعاء. فقد لخصت «جيرمن غريرو» في كتابها الأخير الأكثر مبيعاً، استعراضها لكل الدلائل خلال ثلاثين عاماً منذ كتبت كتابها النسائي الشهير «الأنثى المخصّية»، بقولها «أصبحت حياة النساء أكثر لا أقل صعوبة». ووجدت أنه من المضحك أن يكون الوضع هكذا. بسبب الثورة التي ساعدت في الإلهام لها «لا تشعر النساء أن عليهن الاستمرار في علاقة غير سعيدة أو أن عليهن أن يحملن ضد إرادتهن». لذلك علينا أن نتوقع «اختفاء الأمراض النسائية»، بما أن النساء يتخلين بأعداد أكثر من زيجات ظالمة ويطالبن بالاستقلال.

إن الأمر ليس كذلك. إنها تقول «إن الدليل يُظهر أن الأمر أصبح أسوأ. لم نسمع منذ ثلاثين عاماً عن نوبات ذعر، أو عن حالات فقدان الشهية أو تجويع الذات، الآن أصبحت النماذج العليا لمعاناة النساء تحيط بنا...»[8].

تساند بعض الأبحاث الأخرى نظرية «غرير»، وتصادق على نتائج استبيانات المجلات النسائية، وتظهر حقيقة قلق «بريدجت جونز» كما تظهر تضاعف التعاسة التي ذكرتها. يظهر استبيان شمل 1100 امرأة قام به معهد الدراسات للتأمين، وموّله مجلس الأبحاث الحكومي أن «الكفاح لموازنة أعباء العمل والحياة المنزلية أصبح أكثر صعوبة في العقد الماضي». تعمل النساء ذوات الأطفال الآن ساعات أكثر مما كن يفعلن في الماضي. ويحاول التقرير أن يظهر هذا الأمر بشكل إيجابي: نستطيع التفكير بهذا الأمر على أنه «تحرير للمرأة من متطلبات الأطفال». تحرير؟ من الصعب أن ينسجم هذا مع حقيقة أن هذا التغيير بالحقيقة «قد رافقه انخفاض حاد في رضا النساء»[9].

أخيراً، ربما يكون الاستبيان الذي يتقصى سعادة ورضا الرجال والنساء والذي نُشر أخيراً، هو الأكثر شمولية وإدراكاً. درس الاستبيان معطيات صحيحة لاستبيانات 100.000 شخص تم اختيارهم عشوائياً من أمريكا وبريطانيا من أوائل

السبعينات حتى أواخر التسعينات. ووجدت تلك الدراسة أن معدلات السعادة المبينة في تلك الاستبيانات قد تراجعت في تلك المدة في الولايات المتحدة بينما كانت هي ذاتها في بريطانيا. لكن الأكثر إثارة للانتباه هو أن الرجال، رغم كل التراجع العام للنتائج، أصبحوا أكثر سعادة من ذي قبل. إذاً ماذا كان سبب التراجع؟ لقد تراجعت سعادة النساء بشكل مفزع في تلك الحقبة. كانت النساء في أواخر التسعينات أقل سعادة بمقدار 20 % مما كانوا في أوائل السبعينات وكانت معطيات الاستبيانات في بريطانيا مشابهة لذلك في الولايات المتحدة.

تشعر «بريدجيت» بعدم ارتياح خاصة برفقة «المتزوجين المغرورين». توحي الإحصائيات بالأسباب. إن الزواج المستقر، كما تشير الدراسة، هو المؤشر الوحيد الأكثر تنبئاً بالسعادة. بعبارة مالية، الزواج لـ «بريدجت جونز» قد يساوي 100.000 دولار إضافية بلغة الرضا طوال سنين حياتها. إن الاستنتاج الرئيسي للباحثين الأميركيين والبريطانيين جلي: «إن الإصلاح من أجل العدالة بين الجنسين في المجتمع لخلق ازدياد سعادة النساء لم يكن ناجحاً في كلا البلدين»[10].

إن تعاسة «بريدجت جونز» مبنية على الواقع. تعطي «بريدجيت جونز» مثالاً حياً، وتتعرف النساء على ذلك المثال بأنه مثالهن. فبعد أربعين عاماً من تفجير «بيتي فريدان»، «أسطورة النساء الغامضة»، وثلاثين عاماً من حثت «جيرمين غرير» النساء على التحرر الجنسي، أصبحت النساء أقل سعادة بكثير مما كن في الماضي.

بيتي فريدان تقابل بريدجت جونز

ربما لم يكن الأمر منصفاً لـ «بيتي فريدان» (ولجيرمين غرير كما سنرى لاحقاً)، لأنه بالرغم من أنه كان من الممكن أن يكون من الصعب تخيل أن تكون «بريدجت جونز» نتاج ثورتها في 1963، في فإنها وعند كتابتها «المرحلة الثانية» تجد نفسها قلقة على النساء المماثلات لـ «بريدجت جونز».

في الحقيقة، لقد لاحظت بنفسها إحصائيات مزعجة كالتي ذكرت آنفاً، بالرغم من أنها كانت لا تزال متفائلة أن تلك كانت مشكلات مؤقتة، وإن النساء ببساطة كن يتكيفن مع حريتهن الجديدة. تقول أن الدراسات التي أجريت في الأعوام 1954، 1959 حتى عام 1962، وأعيد إجراؤها في السبعينات تكشف عن أن الشابات «يعانين من علامات ضغط نفسي، أكثر من الشابات اللواتي كن في العشرين أو الثلاثين من العمر في الخمسينات والستينات، وأنهن كن يشعرن أنهن على حافة الانهيار النفسي أكثر من الشبان. كانت أكثر الحالات شيوعاً في عمر 35 إلى 39 حيث أن واحدة تقريباً من كل ثلاث نساء في السبعينات عانت من حدوث أو إمكان حدوث انهيار نفسي مقارنة بحدوث ذلك بنسبة 23 % للنساء في ذات العمر في العقد السابق. لم تكن مواساتها كافية لتلك الشابات كما فعلت بقولها أن تلك الخيارات «في الحقيقة تجعل الحياة النفسية للنساء في حياتهن أفضل»، لذلك عليهن الالتزام بخياراتهن وكل شيء سيكون على ما يرام. ولكن لم يكن كل شيء على ما يرام بعد مضي عشرين عاما، استمر ذلك الانحدار. إن أسباب هذا هي ذاتها التي تؤكد عليها فريدان في مقابلاتها وحكاياتها.

في الوقت الذي كتبت فيه «المرحلة الثانية»، تعيد «فريدان النظر» في الحركة التي أطلقتها. وتعترف أنها قد ذهبت بعيداً، وأن هناك الآن خطراً آخر سببه «الغموض الأنثوي» يجب محاربته. «من الغريب أنني لا أرى هذا الكتاب على لائحة الكتب المقررة في الثقافة الجنسية الآن، حيث لا يزال كتاب «الغموض الأنثوي» على تلك اللائحة». لكي أكون منصفة لا يجري ذكره من قبل مناهضي الحركة النسائية التي تُتهم «فريدان» بإطلاقها. على الأغلب قرأت «هيلين فيلدينغ» كتاب «المرحلة الثانية»، بما أن كل شخصياتها موجودة فيه بشكل بدائي.

كانت «فريدان» في كتابها ضجرة من هجوم الحركة النسائية. وتنتابها هواجس ملحّة مزعجة لم تتركها أبداً: إن هناك خطأ مما حصل نتيجة تحرر المرأة. لإن الشابات حتى في أوائل الثمانينات كن قد بأن بإغراقها بالشكاوي عن

«شيء من الحزن والارتباك، والقلق وعدم الارتياح، وحتى بعض المرارة، لم يجرؤن على الاعتراف بها». لم يكن هناك أي اسم لهذه المشكلة التي تم كشفها منذ 1981 ولكن تم الاعتراف بها. هناك من بعض الشابات اللواتي لاحظن فجأة أنهن يحسدن الحياة التي عاشتها «فريدان» قبل نشوء الحركة النسائية ـ ويشعرن أنهن قد تخلين عن حياتهن، وجاء اكتشافهن هذا متأخراً جداً.

كان هناك شابة جذابة في أواخر العشرينات من العمر في كاليفورنيا، كانت تلك الشابة على الطريق لتصبح نائبة رئيس شركة تلفزيون، أرادت تلك الشابة الاجتماع مع «فريدان» على انفراد قبل وصول رئيسها. كان من الممكن أن تكون تلك الشابة الإلهام لـ «بريدجت جونز» في عملها الثاني عدا أنها كانت ترتدي ثياباً مثل عارضات الأزياء في مجلة فوغ. قالت تلك الشابة لفريدان مدافعة وفي ذات الوقت متهمة: «إنني محظوظة لحصولي على هذه الوظيفة... ولكن أنتن اللواتي ناضلن لهذا كان لديكن عائلات، كان لديكن أزواج وأطفال. ماذا علينا أن نفعل؟» ربما لن يهدأ قلق تلك الشابة عند قراءتها سرد «فريدان» عن حياتها العائلية حتى وهي تكتب للحركة النسائية:

> «طوال الأعوام التي كنت أكتب فيها عن «الغموض النسائي» كنت أتوقف بسعادة عن العمل عندما تعود ابنتي الصغيرة من المدرسة أو عندما يكون لدى أولادي الذكور مباراة كرة السلة أو عندما أُعد لزوجي عندما يعود كأساً من المشروبات والعصائر وأحضّر العشاء، أو نتناقش، أو نذهب في رحلات إلى السوق أو إلى المزادات يوم السبت، أو أنظّم حفلات شواء على الشاطئ، أو أصطحب الأطفال إلى موقع معركة «غيتسها»، أو للتخييم في خليج «هاتراس» ـ جميع الأمور العائلية العادية».

في سردها لحياتها العائلية، مثل صديقة «بريدجت جونز» ماغدا «المتزوجة» والتي غافلة بشكل كامل عن تأثير وصفها لحياتها الزوجية الخاصة على أخواتها العازبات التعيسات، كانت «فريدان» تنكأ جراح النساء الوحيدات الحزينات عن

قصد. لا تستطيع الشابات اليوم تقبل وصف «فريدان» المفصل عن اللحظات البسيطة السعيدة في حياتها العائلية. لا تستطيع احتمالها لأن «فريدان» بكل بساطة قد غيرت نمط طبيعة حياة المرأة في الغرب.

تستمر قصص الألم وتستمر. تقول لها إحدى المحاميات: «عندما حملت أُصبت أنا وزوجي بالكآبة لأن ذلك الحمل يتعارض مع أعبائنا المهنية. قمت -للأسف- بإجراء إجهاض. اليوم ليست الحياة ممتعة لكوني جزءاً من الآلة العاملة. إني أشعر بالحسد من أختي التي لديها ولدان في السادسة والثالثة من العمر». هناك تلك المرأة من نيويورك «تبلغ الثلاثين من العمر» والتي تمت ترقيتها الآن، تقول: «إنني أتقدم عكس اتجاه عقارب الساعة، أستطيع القول أن الوقت يداهمني، إذا لم أحصل على طفل الآن سيكون الأمر متأخراً جداً لاحقاً. إنه خيار مؤلم، إذا لم يصبح لدي طفل سأكون قد فقدت شيئاً في الحياة؟ هل سأشعر حقاً بالرضا كامرأة ؟».

وهناك منتجة برنامج إخباري، شابة محترفة وتتمتع بالكفاءة في أواخر الثلاثينات. التي أخبرتها والدتها: لا تقومي بما قمتُ به، احصلي على مهنة، افعلي شيئاً في حياتك، لا تعتمدي على أحد آخر. كانت تخشى أن تتخلى عن استقلاليتها ولكن:

«أصبحت مهووسة في الحصول على أطفال. كل امرأة في عمري تعاني من ذلك إذا اعترفت أو لم تعترف. بعد كل تلك السنوات من إثبات أني أستطيع القيام بتلك الأعمال مثل أي رجل، بدأ ينتابني شعور قوي بأنوثتي. أدركت أنني حقاً أريد الحصول على طفل». أخيراً ينفطر قلب المرء على سيدة في منتصف العمر من أوهايو التي تقول:

«كنت المرأة الأولى التي تتسلم منصباً إدارياً هنا، أعطيت كل شيء للعمل. كان العمل ممتعاً في البداية، حيث استطعت دخول مجال عمل لم يسبق أن قامت به أي امرأة أخرى. لكن ذلك الآن أصبح مجرد وظيفة. ولكن الشعور المؤلم بالوحدة

هو الأسوأ. لا أستطيع تحمل العودة إلى المنزل وحيدة كل ليلة. أفضل أن يكون لدي منزل ربما له حديقة وربما طفل، على الأقل سيكون لدي عائلة، يجب أن يكون هناك طريقة أفضل للحياة. امرأة وحيدة...».

تسمع «فريدان» كل تلك الحكايات، وتسمع أيضاً الانتقادات التي تلوم الحركة النسائية على عدم الاستقرار المتنامي لـ «ربات المنازل اللواتي لا يستطعن الاعتماد على أزواجهن لإعالتهن بعد الآن». تُلام الحركة النسائية على أنها السبب في «انهيار الأسرة، وارتفاع معدلات الطلاق وإهمال الشباب والشعور باللامبالاة تجاه التعاليم الأخلاقية». تعتقد «فريدان» أن تلك الانتقادات لا يمكن تجاهلها كجزء من الإعلام المعادي[11]، أو ما دعته «سوزان مالوري» لاحقاً «رد فعل معادي»[12]. تقول «فريدان» أن هناك شيئاً من الصحة في ذلك. يجب على الأقل أن نعترف ونبدأ بصراحة مناقشة إنكار النساء لأهمية العائلة، ولحاجة المرأة الخاصة إلى إعطاء وأخذ الحب وتغذية الاهتمام الرقيق والمحب. تستمر «فريدان» بالقول «ما يقلقني اليوم هو الصراع الأليم الذي تواجهه النساء والشابات واللواتي في منتصف العمر ـ أو اللواتي ينكرنه ـ عندما تبدأ ساعتهن البيولوجية في العد التنازلي، في الخامسة والثلاثون حتى الأربعين ولا يستطعن أخذ القرار في الحصول على طفل».

في عام 1981 أدركت «بيتي فريدان» أن هناك حاجة ملحّة لإعادة النظر في الحركة النسائية، فكتبت بصدق رائع قائلة:

نخشى أنا وآخرون من أعضاء الحركة النسائية وإن خشينا الاعتراف أو مناقشة هذه الأعراض المقلقة بصراحة لأن الحركة النسائية، في الحقيقة، كانت مصدر ومركز طاقتنا، وقوتنا وأماننا، إن أُسسها ودعمها بقيت لسنوات عديدة... لكننا لا نستطيع المضي في إنكار أعراض التعاسة المحيرة. إذا كانت تلك الأعراض تشير إلى أن هناك شيء خطير، فيجب علينا العثور عليه وتغيير مسارنا قبل فوات الأوان.

obeikandl.com

كان التغيير صعباً لأن أكثر النساء «لديهن احترام شديد حيال الحركة النسائية مشابه لاحترام الدين»، قدسية، تبجيل ورهبة، وهذا ما جعلهن يتجاهلن تلك الأعراض ومناقشتها والتساؤل عمّا هو هام للنساء الآن. وهنا بدأ ظهور التناقضات. لاحظت «فريدان» قلق الشابات لكنها تبدو مدفوعة الى دعم استمراريته، وهي تروي قصة شابة من فلوريدا دعتها لإلقاء كلمة من جامعتها ضمن أسبوع للحركة النسائية «كانت الشابة نحيفة، سمراء، واثقة، عضوة في مجموعة نسائية وطموحة جداً. اعترفت بأنه عرض عليها عمل عند التخرج. كان ذلك العمل في بوسطن ولكن صديقتها كانت في كلية الحقوق في ميامي. لم تكن مثل «بريدجت جونز» الآن بل مثل «آلي ماكبيل».

تسألها «بيتي» محاولة سبر أفكارها حول التزامها لتلك الفرص. كان رد الشابة سريعاً وحاسماً: «لم أواجه أي تمييز في حياتي»، ارتاعت بيتي وثار سخطها، واستعادت بسرعة مبادئ الحركة النسائية قائلة لها: «لولا الحركة النسائية لم يكن من الممكن لك الذهاب إلى الجامعة وفرصة الحصول على عمل بسهولة» وتوبخها بالقول: «ليس مهماً كونك ذكية، لم تفكر أي فتاة من فلوريدا منذ عشرون عاماً في الحصول على عمل بسهولة، فما قولك في هذا العمل الذي ما زلت تفكرين بقبوله أو لا». أجابت تلك الفتاة الحادة المتقدة بالحماس بالقول بجرأة أنها قد شاركت في انتخابات ملكة جمال الجامعة. على كل حال اقتنعت الشابة آخر الأمر بما قالته «فريدان»، وبينما كانت تقل «فريدان» إلى المطار في اليوم التالي قالت: «أتعرفين أنك بدلت رأيي ليلة أمس» تقول الشابة أن المشكلة هي أنها ممزقة «أحب صديقتي في ميامي، وأريد ذلك العمل الذي عرض عليّ في بوسطن، كلما أحاول التفكير كيف أستطيع الجمع بينهما أشعر بالغثيان»[13].

السؤال هو: هل خُلقت «بريدجت جونز» جديدة؟ هل هذه شابة جديدة بدأت تسعى وراء عمل على حساب زوجها وعائلتها؟ وهل تشعر «فريدان» بالذنب ولكنها غير قادرة على استرجاع نصائحها حول حقوق المرأة حتى ولو كانت تعلم أن ذلك قد يقود إلى التعاسة؟.

obeikandl.com

بريدجت جونز: مشاركتي في سقوطها

قد يكون من الأفضل أن يكون هذا الكتاب قد كتبته امرأة. إن صوت النساء الذي يصل عن طريق «بيتي فريدان»، «جيرمين غرير» أو «هيلين فيلدينغ» قد يُسمع ويُقدر أكثر. يمكن للرجل أن يكتب حول «الكوارث الذكورية» كما فعل «أنتوني كلير»، ولكن لا يجب عليه أن يجتاز الحد ويكتب عن النساء.

بالطبع تستطيع النساء أن يكن أكثر مرونة، تستطعن الكتابة عن مشاكلهن الخاصة، كما تستطعن الكتابة عن مشاكل الشباب والرجال، كتبت «سوزان مالوري» في كتابها «Slifled» عن مشاكل الذكورة كما تراهم من زاويتها الخاصة ولم يقلق أحد لذلك. وكتبت «كريستين سكلتن»، «تعليم الصبية» ولم ينظر أحد إلى هذا الأمر على أنه غريب[14]. ولكن أن يكتب رجل في مشاكل المرأة بدا وكأنه ينتهك قواعد غير مكتوبة، قال بعضهم أن كتابة رجل عن مشاكل المرأة قد يخل بالتوازن. لقد قيل لي أن النساء يعرفن أن ما تقوله صحيح ولكن إذا ما كتبت تلك الأفكار فإنهن سيستجبن ضدها وستعود القضية عدة سنوات على الوراء. لماذا، يتساءل صديق ناقد في أميركا، لماذا تكون الشخص البغيض في الحفل؟

إنني لست مقتنعاً بالبقاء صامتاً. فبالرغم من أنني أشاهد الكثير من الاضطراب وخيبات الأمل، والتعاسة وعدم الشعور بالرضا لدى النساء، لا أرى أحداً ينطق بهذه الفكرة بالذات. ليس بعد على أي حال. المشكلة أن فئة واحدة في الحركة النسائية تحكم الجماعة التعليمية. وربما هذا لأن عضوات الحركة النسائية قد نجحن في انتزاع القيادة، أو ببساطة لربما كان هذا النوع من النشاط النسائي مريحاً جداً للرجال الذين يتحكمون في مراكز القوة. يبدو أن القادة الذكور يتبنون سياسة التعليم ذات التوجه الأنثوي بحماس. أنني لست في موقع الحكم على هذا الآن. ولكن لأي سبب كان من الواضح أن أصوات الكثير من النساء لم تُسمع حتى الآن ــ وهذه الأصوات هي لنساء من طبقات مختلفة ــ من نساء يصفن أنفسهن مناهضات للحركة

النسائية، إلى اللواتي يصفن أنفسهن كجزء من تلك الحركة. أما النساء العاديات، فليس لديهن الوقت لتقرير إلى أي مجموعة ينتمين. وبالرغم من أنني أستحسن الفكرة، في شكلها الأولي على الأقل، يبدو أن لا أحد ضمن هذا العدد الوفير في مجال الكتابة ـ في الحركة النسائية أو من مناهضاتها ـ يُعبر عنها بصراحة. لا يوضح أحد أن سياسة التعليم الحالية ليست في مصلحة الأكثرية من النساء بالرغم من أنه من الممكن أن تكون في مصلحة البعض. لهذا، ربما علي أن أؤلف هذا الكتاب بينما أُعيد إحياء تقليد ذكوري خاص، الشهامة. أشعر بالقلق على «بريدجيت جونز». حسب قوانين الشهامة علي أن أؤلف هذا الكتاب كما لو أن علي أن أفتح الباب لها أو أساعدها في حمل حقائبها إلى الأعلى: آمل أن تفهم هذا الأمر على ما هو عليه.

لكن حقيقة الأمر هي أنني أشعر بالتورط في تلك المشكلة. ببساطة أشعر أنني متورط لكوني أستاذاً في التربية في جامعة «رسل» ذات المكانة التعليمية الهامة. وإذا تجاهلت عدم ارتياحي من مظاهر التعليم الحالية سأكون مذنباً بخطيئة الإهمال. لكنني أشعر أنني قد تورطت بأكثر من هذا. تبدأ أكثر كتابات حركة دعاة حقوق المرأة بكتابات المؤلفة عن حياتها الشخصية: كيف وصلن إلى هذا المنصب، اعترافاتهن عن حياتهن الشخصية وانعكاس ذلك عليهن. وهذا يكون غالباً عن علاقات فاشلة وكيف تبعتها الصحوة التي وصلت فيها النساء إلى لحظة تحقيق الذات الصرفة. بدا وكأن النساء أحببن تلك الطريقة في بدء الكتاب. ويتوق جزء مني إلى تلك الطريقة أيضاً، ربما تتاح لي فرصة مساوية للتنفيس عن شعوري في الفصل الأول من هذا الكتاب قبل أن أطلق العنان لبعض الإثباتات والبراهين لاحقاً. لكني أقول لبعض القراء الذين لا يعتقدون أن تأليف هذا الكتاب يحتاج إلى المزيد من التبرير، أو الذين يشعرون بعدم الارتياح لإفشاء بعض الأمور الخاصة أنه لن ينقص شيء أساسي في المناقشة إذا تم البدء في الفصل الثاني مباشرة. إذاً لماذا أشعر أنني متورط في متلازمة «بريدجيت جونز»؟

obeikandl.com

أولاً كوني رجلاً، ثانياً لأنني مربٍ، ثالثاً لأنني كنت مناصراً لحركة دعاة حقوق المرأة في الأوقات الحرجة في السبعينات والثمانينات. أجد من الصعب أن أقوم بالقسم المتعلق بالرجل أولاً، لذلك دعونا نعالج الأمر بترتيب معاكس. أولاً ماذا كان تأثير دوري كمؤيد لحركة دعاة حقوق المرأة في سقوط «بريدجيت جونز»؟

أصبحت مؤيداً لحركة دعاة حقوق المرأة منذ كنت في عمر المراهقة. وقد كان ذلك من خلال مناقشاتي مع المساعدة الفرنسية في المدرسة، التي كانت شابة متحررة من غوادلوب، وغارقة في المشاكل التي تواجهها شابة مثلها، وفي العنصرية التي تزيد من تفاقم التمييز العنصري الذي عانت منه. فَتحَت عيني على القمع الذي عاشت أمي فيه يوماً بعد يوم، وأظهرت لي المنهج الخفي الذي يدفع أختي كي تنمو بشكل مختلف عني، شكل غير مرغوب به. بينت لي الحقيقة أثناء دردشاتنا القصيرة بعد انتهاء الحصة الدراسية في المدرسة في بريستول. ثم لاحقاً عند زيارتي لها في باريس عندما كنا نسير على ضفاف السين، أو نحتسي القهوة في الحي اللاتيني، كنت أستمع إلى وصفها لمظالم دعاة حقوق المرأة. وقد كانت تلك المواد عنيفة وخيالية.

بدا كل شيء واضحاً. تطابق تحليلها بشكل رائع مع وجهة نظري العقلانية. استغرقت في كل كتابات دعاة حرية المرأة التي أرشدتني إليها بدأً من «بيتي فريدان» إلى «جيرمين غرير»، وبالطبع انتهاءً بـ «سيمون دو بوفوار». قرأت كل روايات الأدب النسائي أيضاً، وبشكل خاص رواية «مارلين فرنش»، «غرفة النساء». وقد نقلت بدوري كل تلك الدروس إلى شقيقتي الأصغر. إذ كنت ألقي عليها كيف يتم اضطهادها، وأصحبها إلى مسيرات مناصرة لحق الإجهاض، وأحثها على التحرر كامرأة.

كنت من دعاة حقوق المرأة الشباب ــ كما كنا نسمي أنفسنا في ذلك الوقت ــ أعتقد أن التسمية الحديثة «مؤيد تحرير المرأة» تبدو مقبولة أكثر. وكوني من دعاة حرية المرأة، كنت أؤمن بالتساوي بين المرأة والرجل، وخصوصاً في التساوي

في العلاقات. هذا يعني لشاب ـ وهي محاولة يدعمها كل الأدب النسائي في ذلك الوقت كما هو الآن ـ أنه يجب على النساء أن يتحررن ليحصلن على حقوق مثل حقوقي. لقد أرادت النساء الاستقلالية كما أريدها. وإذا لم يرغبن في ذلك فمن واجبي أن ألفت نظرهن ـ كما فعلت كل مؤلفات دعاة حرية المرأة اللواتي أعجبت بهن ـ برقة وحزم إلى وعيهن الخاطئ. يجب على الفتاة أن تدرك أنه لكوني رجلاً، يجب أن أكون حراً كما في أغنية «هل التقيت مس جونز» التي تضمنها فيلم «مذكرات بريدجت جونز». لكن أهم من ذلك هو أنها يجب أن تكون حرة هي أيضاً. إذا لم تحصل النساء على استقلاليتهن، فهذا يعود إلى ذلك الهراء الرومانسي المتعلق «بغموض المرأة». يجب إرغامهن، إذا كان هذا ضرورياً، على الحصول على حريتهن.

يوضح حدث يعود إلى أيام الدراسة إحدى محاولاتي في ذلك الوقت. كنا نحتسي الشاي أنا وصديقتي مع آخر، سألته ماذا تريد أن تفعل بعد تخرجك فقال: «ربما سنذهب إلى زيمبابوي للتدريس هناك، أو إلى مانشستر للحصول على شهادة الدراسات العليا. كان ذلك مفاجأة لأن تلك كانت خياراتي التي كنا نناقشها والتي كنت سأقوم بها بعد التخرج. لم يخطر ببالي أنها افترضت أنها ستقوم بها معي. ولم يخطر ببالي أيضاً أنه ليس لديها طموحاتها الشخصية (التي لم نناقشها بعد). وقد قلت ذلك أمام صديقنا الذي لامها على ذلك، أما هي فتقبلت ذلك بشكل جيد واعترفت بالذنب. بالطبع يجب أن يكون لها طموحها الخاص. نعم، لا يجب أن ترغب في اللحاق بي. أليس هو هذا الدرس الذي تعلمناه من «غرف النساء»، حيث تدرك «ميرا»، إحدى النساء، أنه ليس عليها اللحاق بزوجها إلى إفريقيا، وأن لها حياتها المستقلة لتعيشها؟ بالطبع إن افتراض الرجل ـ افتراض «بن» ـ أنها ستلحق به هو بالضبط جزء من القهر الذي نحاربه. كنت أفضل من بن وكان لدي الوعي الكافي لأفترض أنه ليس عليها مرافقتي.

كم كان كل هذا مريحاً لي، عدم التفكير في ما هو خير لها. كان ذلك من أفكار دعاة حقوق المرأة. حررتني تلك الأفكار من أي مسؤولية للتفكير فيها كامرأة لديها متطلبات ورغبات مختلفة عما لدي.

بعد الجامعة آثرت خيار «التدريس في زيمبابوي» وقد لحقت بي بعد عدة أشهر مع أن العلاقة بيننا لم تدم. ولم يشكل هذا الأمر مفاجأة لي بسبب موقفي منها. هذا يقودني إلى المستوى الثاني الذي كنت متورطاً به في متلازمة «بريدجيت جونز»: كوني مربياً. بدأت العمل كأستاذ في مدرسة كان جميع التلامذة فيها إناثاً. وكان ذلك رائعاً. أستطيع أن أقول هذا بكل جدية، لأنني أستطيع أن أشارك في مساعدة الفتيات على اكتشاف اضطهادهن. وبالنظر إلى الوراء أستطيع القول أننا كنا معلمين مغتربين مستعمرين. آمّنا بصدق أن هؤلاء الناس كانوا متخلفين، ليس بالطريقة التقليدية في التخلف الإمبريالي، بالطبع: كانوا متخلفين في موقفهم من النساء، وفي جهلهم لمعتقدات دعاة حقوق المرأة الرئيسية. في مدرسة الفتيات تلك، كنت أواجه طوال الوقت بشعور الفتيات الخاطئ، وقد حاولت معالجته عند ظهوره البغيض. لا بد أن محاولتي تلك قد أثمرت؟

حدث ذلك أولاً في دروس الرياضيات. خلال درس الرياضيات كنت واعياً جداً للحاجة إلى تغيير الأمثلة الموجودة في الكتاب من «فتى» إلى «فتاة»، ومن «رجل» إلى «امرأة». تجاهلت الأسئلة المتعلقة بألعاب الكريكيت وكرة القدم وحاولت استحضار أمثلة ذات صلة أكثر بواقعهن، مثل فقر الأطفال في الأراضي المشاع وإنتاج الغذاء في مزارع الجمعيات. وذات مساء، جلست وأحصيت الأسئلة في الكتب المدرسية واكتشفت أنها أسوأ بكثير مما كنت أعتقد. على سبيل المثال، في كتاب الحساب في 50 من الأسئلة التي ذكرت الفتية أو الفتيات، الرجال أو النساء (مع العلم أنني لم أحصِ الاستخدام اليومي الذي يفترض أن الأعمال أو الألعاب الذكورية قد تم الإشارة إليها) تم الإشارة في 40 منها إلى الفتية

والرجال، و10 فقط إلى الفتيات والنساء. وضمن العشرة التي ذكرت فيها الفتيات، كن جميعاً إما ممرضات أو ربات بيوت. شعرت بالسخط بالنيابة عن فتياتي. لا عجب أنهن كن غير محفزات من تلك المواد، ولا عجب أنهن كن مقيدات في خيارهن لنوع الحياة لاحقاً.

صممت أن أقوم بشيء ما حيال ذلك، فطرحت الموضوع عليهن. في يومياتي، كان يمكن لتلك اللحظات في السابع من شباط 1984 أن تكون يوم بعثي، ولكن ذلك لم يحدث. أخبرت الطالبات أننا لن نقوم بالحساب ذلك اليوم، وأن هناك شيئاً أهم يجب أن نتشارك في الحديث عنه. بدت الفتيات مسرورات والتفن حولي. أخبرتهن بما اكتشفت وأريتهن النماذج، وأخبرتهن عن المبادئ التي استقيتها من عدة نصوص حول حقوق المرأة، وأعطيتهن نسخاً من نتلك النماذج. ما رأيهن في كل هذا؟

لم تكن كلهن بطيئات في التقدم للمناقشة. لم يكن هناك أي صوت معارض، ولم تكن الحقائق موضع نقاش. بالطبع كانت النصوص متحيزة باستخدام نماذج عن الفتية والرجال واهتمام بالذكورة، لكن بالطبع كل ذلك لم يجعل الحساب غير ممتع! لا يريد الفتية أن يناقشوا الفتيات أو اهتماماتهن. كان الفتية ببساطة ليسوا مهتمين بذلك. لكن الفتيات يردن أن يناقشن أمور الفتية. فسوف تنضج الفتيات قريباً، لذلك يرغبن بالحصول على أكبر قدر من المعلومات عن الفتية. في الحقيقة، كان ذلك مرعباً بالنسبة لي، إذ قالت الفتيات أن ذلك الانحياز إلى الفتيان في الكتب المدرسية كان ممتعاً.

لم تطق الفتيات بديلاً. وقد أغويتهن بحقيقة أن وجود أمثلة أكثر عن الفتيات هي أفضل وتمكنهن من الشعور بقيمتهن. جربت طريقة أخرى، وهي القول أن الأساتذة الذكور في مدرستنا هم فقط أساتذة الحساب، وكان هذا كفيلاً بجعلهن يتجنبن الموضوع. لم تكن تلك طريقة جيدة لاستخدامها. قالت إحداهن: هل تناور يا سيدي؟

كون أستاذ الحساب ذكراً يجعل الدرس أكثر متعة لبعض الطالبات، وضحك الجميع. احمر وجهي والتقطت أنفاسي وقلت أن صورتهن الذاتية سوف تعاني كنتيجة لذلك، وحاولت تذكر كل ما استطعت التقاطه من النصوص النسائية. ألا يوافقن أن كتب الحساب كانت تعزز صورتهن كأشخاص سلبيين أو كدخلاء؟ لم يوافقن على ذلك. وافقت بعض الفتيات على كلمة سلبية لكنهن لم يجدن غضاضة في ذلك. قالت إحداهن وهي تجلس مرتدية تنورتها الزرقاء وجواربها التي وصلت حتى الكاحل: «للنساء أساليبهن الخاصة في أن يصبحن قويات وأن يلفتن الانتباه».

أقمت حصة للمناظرة، كان ذلك نشاط إضافي، وكنت موفقاً جداً في ذلك. وجد كل الأساتذة الغرباء أن كل النساء في المناطق الريفية كن يعاملن بطريقة مقرفة. كن يعاملن وكأنهن حيوانات تُستخدم لحمل الأثقال. خلال تجوالنا في الريف كنا نرى النساء يحملن على رؤوسهن أحمالاً ثقيلة من الخشب، أو بعض الأغصان الثقيلة. كان الرجال والنساء يمشون معاً فترى المرأة تحمل أشياء ثقيلة بالإضافة إلى طفل، بينما يمشي الرجل ومعه حقيبة صغيرة إلى جانبها. في غالب الأحيان لم يكن للرجال أي دور في أي من الأعمال. فتراهم ينفقون أجورهم على اللهو والضياع. بينما تقوم نساءهم بالأعمال الشاقة من تربية الأولاد إلى الأعمال الزراعية في المناطق الريفية. ورغم أن الفتيات في صف المناظرة وافقن معي على تلك المشكلة، إلا أن الحل الذي قدمته كان بغيضاً بالنسبة إلى بعضهن. قلت لهن أن النساء يحتجن إلى حقوق، وأن هذا منطقي وواضح. وأن هناك مشكلة في كيفية معاملة المرأة، وأن الحل الوحيد هو وجود دعاة لحقوق المرأة، وأن هذا ما نعتقد به في وطننا.

وافقت بعض الفتيات على بعض تلك الأفكار ربما لبعض أغراضهن الخاصة، وبدأت أمدهن بالكتابات النسائية لمساعدتهن أثناء تلك الرحلة، وأنا أشعر بالذنب لذلك، كما كنت أمد أختي في السابق. بعض الفتيات في المرحلة السادسة لم يقتنعن بكل ذلك. قالت إحدى الفتيات الفصيحات بكل صراحة أن

المشكلة في إفريقيا تكمن في أن النساء لا يُحترمن بشكل كافٍ، وأن هناك نقصاً في الشوفينية لا الكثير منها. وقد قالت أن ما ظنته قيماً في «الغرب المسيحي» هو أن النساء كن يُقدرن. كانت الشوفينية هي أن على الرجال أن يدركوا أن عليهم القيام بواجباتهم نحو النساء، أن يحملوا أثقالهن، وأن يكفوا عن احتساء المشروبات في البارات وعن ملاحقة النساء. وقالت أن آخر شيء تريده هو استقلال أكثر للرجال، إذ أن الرجال مستقلين أكثر مما يجب. ما أرادته هو ما شاهدته في صورة المجتمعات البيضاء في زيمبابوي حيث نجحت النساء في جذب الرجال بشكل أقرب إلى المنزل. وحيث تتولى النساء شؤون العائلة المالية، ويذهب الرجال إلى العمل ولكنهم يعودون إلى المنزل ويبقون هناك طوال الليل. وحيث يقوم الرجال بالأعمال الشاقة ويفسحون للنساء بعض الوقت لرعاية أطفالهن بمحبة بدلاً من القيام بالأعمال المتعبة التي رأت النساء يقمن بها في المناطق الريفية. وأضافت، إن ما تريده النساء هو أنه على الرجال أن يدركوا مدى اعتمادهم على المرأة، لا حصول المرأة على استقلاليتها لأن هذا سيحرر الرجال من مسؤولياتهم حيال الحياة العائلية.

بالطبع ناقشت كل هذا، لكنني أسكت تلك الشابة برفق وحزم. لا يجب أن يسمع أحد تلك الآراء. فكل ما ذكرته كانت آراء رجعية. وعوضاً عن تشجيعها ساندت الطالبات اللاتي اخترن الوقوف إلى جانبي. لا بد أنه كان لي تأثير عليهن. وأنني قد غيرت بعض الشيء في حياتهن. بعض الفتيات كن سيفعلن أي شيء ليدخلن السرور إلى نفسي، أنا أستاذ الرياضيات. حتى أنهن أصبحن فجأة من دعاة حقوق المرأة. بالطبع كنت في الجانب الفائز، بينما كانت أفكار دعاة حقوق المرأة تجتاح العالم، أوجدت جذوراً لتلك الأفكار في أماكن بعيدة مثل زيمبابوي.

عندما عدت إلى إنكلترا لاحقاً، أصبحت باحثاً في المؤسسة الوطنية للأبحاث التعليمية (NFER)، أعمل على تقويم مناهج الرياضيات الوطنية. قيل لفريق عملنا بوضوح أن نتجنب أي أسئلة قي موضوعات قد يؤثرها الفتيان. بذلك استبعدت أسئلة عن كرة القدم والكريكت وسرعة السيارات والدراجات. أعتقد

أنني كنت من دعاة حقوق المرأة حتى ذلك الوقت. ولكن الأهم على ما أظن، هو أنني كنت ببساطة أخشى النساء اللواتي يملين علي ما يجب القيام به. بدا أن هناك الكثير من النساء المرعبات وذوات السلطة، في الحقل التعليمي، وعلى الأخص في تعليم الرياضيات في ذلك الوقت. وكان يجب على باحث مبتدئ أن يتبع مسارهن أو أن يخاطر بأن يُلقى خارج العمل. لذلك استخدمت أسئلة «محايدة للجنس (ذكر/أنثى)»، كما يدعوها الباحثون الذكور. أي أسئلة يمكن أن ترضي الفتيات وتعاقب الفتية. هكذا فقد كنت متورطاً وإن بشكل بسيط جداً في الإصلاحات الجنسية (الذكر/ الأنثى) التي عمت البلاد. وقد ساهمت جهودي القليلة في خلق الأجواء التعليمية اليوم، مناخ الأجواء التعليمية في حياة «بريدجيت جونز».

ما هو الشيء الذي أظنه غير جيد للنساء في تلك الأجواء التي أنا نفسي جزء منها كوني مربياً؟ ما هو بالتحديد الذنب الذي ارتكبته في زيمبابوي؟ إن الفتيات هناك، والفتيات اللواتي يُربين في الأجواء التعليمية التي أساعد في بنائها بطرقي الخاصة في المؤسسة الوطنية التعليمية للإناث، سوف يكن منغمسات في فكرة أن تطوير مهنتهن هو الأمر الأكثر أهمية لهن أثناء عمر المراهقة والعشرينات. كان ذلك جزءاً واضحاً في المواد التي كنا ندرسها، ومتوارياً بشكل أعمق في المناهج التعليمية. على مدى سنوات، كنت أراقب الطلبة الأصدقاء والمعارف ينمون في ذلك الوسط. هناك قصة مؤلفة، جزء منها مبني على مقابلات أُجريت لدراسة نماذج طرق التودد للبالغين التي يجريها المشروع الوطني للزواج في جامعة روتجرز[15]، تُوصل إلينا شيئاً من المشكلة التي تجعلنا جزءاً من متلازمة «بريدجيت جونز».

كانت متدربة في مهنة ما، لنقل المحاماة، أو الطب أو الهندسة المعمارية. وكان هو يعمل في ذات الحقل لكنه كان متقدماً عنها ببضع سنوات. كانت علاقتهما

جدية ولكن كان هناك دائماً سبب ما يمنعهما من الزواج. بشكل مبدئي لأنها كانت منهمكة في تدريبها لا بسبب أي من هواجسه. ثم بدأت تساوره الظنون التي بدأت تنمو بقوة خلال سنين تدريبها. وعندما أصبحت في التاسعة والعشرين من العمر، قبل انتهاء فترة تدريبها بعام واحد، جعل حياتها لا تطاق إلى حد أنها أنهت علاقتهما. (بالطبع ستتعرف بريدجيت جونز على هذه الطريقة التي اتبعها الشاب لإنهاء العلاقة، أي جعلها هي تقوم بذلك عوضاً عنه).

العمل للمرأة من الأسباب التي تفشل استمرار العلاقة الزوجية:

بالطبع كان مكسور الفؤاد عند انتهاء الوضع الذي ساهم في حدوثه وأصبح وحيداً مرة ثانية. بكل تأكيد لم يعترف بأسبابه التي دفعته إلى إنهاء علاقته بها أو بأي شيء آخر. كان لديه الانطباع أنها أرادت العمل لكي تكون مستقلة عنه. أخبرته بهذا بكل وضوح وكان هذا مهيناً جداً له. فقد كان يحاول بشدة أن يكون مثل أبيه الذي كان مخلصاً وملتزماً، وكان ضد المحاباة في مجتمعه، وضد كل الضغوط التي تقول أنه لا يهم البتة إذا كان غير مخلص وغير ملتزم. كان يعرف أنه لن يتركها أبداً أو يترك أطفاله في المستقبل. وإذا حصل له حادث سيء، يكون قد قام بشيء جيد بتأمين تعويض الشيخوخة وتعويض التأمين على الحياة كي يعيشوا حياة مالية مريحة وكأنه ما زال موجوداً. وكان كل ما تفعله يقلل من رومانسية كونه المعيل، ويجعله يشعر أقل برجولته ويجعلها أقل أنوثة بنظره. عندما كانت تعطي أكثر لتدريبها، كان يشعر بالتزام أقل تجاهها. وعندما كانت تتدرب أكثر، كان يقل شعوره بالحاجة لزوجة ذات مهنة. إذا كانت تتصرف كذلك الآن فما الذي سيمنعها من التصرف هكذا في حياتهما الزوجية. لديها دائماً شيء أكثر أهمية منه أو من الأطفال؟!

أجريا حديثاً مرة أو مرتين عما سيحدث عندما يأتي الأطفال، وقد تركه ذلك الحديث يشعر بالفتور أكثر تجاهها. ألا يظن أن لها الحق أن يكون لها مهنة مرضية مثله؟ هل أرادها أن تكون مربوطة إلى مغسلة المطبخ! بالطبع لم يرد ذلك. ماذا سيحدث إذا تركها؟ يجب أن تكون مستقلة لأنه لا يمكن الوثوق بالرجال. بالطبع كانت مصيبة. واستمر الأمر هكذا. بدأ يشعر بالسأم أكثر فأكثر من كل ذلك، وفي النهاية لم يستطع تحمله. أراد أن يكون المعيل لها، أراد من أحد ما أن يقدر ما جعله قيماً في نظر نفسه، أي مهنته وطموحاته. وهكذا جعلها تتركه.

لكن الشيء الغريب هو أنه كان للقصة نهاية سعيدة. كان محطم الفؤاد (...). عندما قابلها للمرة الأولى كان خريجاً غراً قليل الموارد، وهذا ما جعل انجذاب النساء إليه صعباً بعض الشيء. في الحقيقة كان هذا أحد الأسباب التي جعلته يتحمل كل ذلك. كانت لديه تلك الذكريات للوحدة القاتلة (...).

(...) كان هناك بعض الرجال الذين رغبوا في موافقتها على الزواج ولكنهم لم يكونوا مناسبين بما فيه الكفاية لها، إذ كانت امرأة ذات مرتبة رفيعة. على كل حال عوضاً عن أن يمكنها استقلالها المادي من تجنب الحاجة إلى رجل يعيلها، بدا أن عكس ذلك هو الصحيح. لم تعد سعيدة مع رجال ذوي مرتبة أقل منها: أرادت رجلاً ذا منزلة عالية، ولكن المشكلة أنهم كانوا إما لديهم صحبة أو مغرمين بفتيات شابات مبتدئات في المهنة مستعدات للتخلي عن مهنتهن واستقلاليتهن كي يتزوجن ويحملن أطفالاً.

فجأة بدا كل هذا غير عادل لها (...)، وكان واضحاً أنه لم يكن عليه التخلي عن فرصه للحصول على زوجة والاستقرار. لكن في اللحظة التي كانت مستعدة فيها، أي عندما كانت ستنتهي من تدريباتها وتصبح أخيراً جاهزة لتكوين عائلة

وأطفال، وجدت أن الأمر أصعب بكثير مما كانت تتصوره. بدا التحدي والمتعة في عملها باهتين من منظار المستقبل المظلم والوحدة مريعاً. ومثل «بريدجيت جونز»، خشيت أن تموت وحيدة، وأن يكتشفوا جثتها المتآكلة بعد أسابيع من موتها[16].

كان هذان الزوجان متأثرين بمعايير المجتمع بشكل عام، بالطبع كثير من التأثيرات صادفتهما في مسيرتهما، ولكن أكثر ما تعلماه كان في المدرسة. بما أنها كانت شابة ذكية وبارعة فقد كانت مهنتها أهم شيء بالنسبة إليها. كان كل شيء في دراستها قد أعدّها لذلك. إذا كنت قادرة على القيام بأمر ما، يجب عليك القيام به. إذا كنت جيدة في العلوم، يجب عليك تكريس نفسك لها. إذا شعرت أنك لا تريدين النجاح في تلك المجالات فهذا شعور مضلل. بالطبع إذا ترددت في عدم النجاح لأن هذا قد يبعد الفتيان عنك فهذه أفكار متردية. يجب عليك كما يجب عليه أن تكونوا مستقلين، وهذا شيء أساسي لا يحتاج إلى مناقشة، وأنت مثله تماماً (...). الاختلاف الوحيد هو أنك قد تحملين لذا عليك الحذر عند القيام بذلك. خلال أيام المدرسة كانت الرسالة واضحة: إن الفتيات متساويات مع الفتية ولديهن مهن واهتمامات حياتية متشابهة. كلاهما متشرب بتلك الروح حتى أنها كانت بالنسبة لهم شيئاً مفروغاً منه. لا شيء في المدرسة هيأهن للمواقف التي ظهرت.

جعلني كل ذلك أؤمن أن ظلماً قد ارتكب. ولكوني مربياً كنت متورطاً في ذلك الأمر، وهذا هو أحد الأسباب التي جعلتني أؤلف هذا الكتاب.

أخيراً، ماذا عن تورطي بالأمر كرجل؟ بينما كنت أكتب هذا سُجنت «جين أندروز»، الوصيفة السابقة لدوقة يورك، لقتلها خطيبها لأنه قد قال لها أنه لم

يعد يحبها ولا يرغب بالزواج بها[17]. إن قلبي معها، فقد كانت في الأربعة والثلاثين وهو في التاسعة والثلاثين من العمر. كانوا أصدقاء لمدة سنتين أو أكثر. كانت تعرف أنه عند انتهاء تلك العلاقة كان من الممكن أن تبقى بدون خطيب لبعض الوقت، ومن الممكن أن تحتاج لعدة سنوات كي تتعافى من جراح ذلك الموقف. ثم عندما تبلغ السادسة والثلاثين ستعود إلى الرغبة في البحث عن زوج. كان ذلك الأمر صعباً عندما كانت في الثانية والثلاثين، وسيكون العثور على خطيب أصعب لاحقاً. كيف يجرؤ على عدم الرغبة في الزواج بها؟ من الممكن أن يكون صحيحاً أنه كان يرغب في الزواج وتكوين عائلة لكنها كانت الشخص الغير مناسب. ربما عرف ذلك بعد ستة أشهر من خطبتهما، لكنه أراد إنهاء العلاقة بلطف كي لا يجرح شعورها في ثمانية عشر شهراً، كما قالت والدته في المحكمة. مهما كانت صحة أو خطأ قضيته، على كل حال، هناك الكثيرون من الشباب في الثلاثينات من العمر لا يرغبون في الزواج ولكنهم يخدعون الشابات الصغيرات. وكي نكون عادلين معهم، فإن القوانين والقواعد قد تغيرت كثيراً إلى حد أنهم لا يعرفون أنهم يقومون بأشياء خاطئة عن عمد. لكنها خطأ، وعليهم أن يعرفوا هذا.

رغم كل الأحاديث التي تدل على أن الذكورة في محنة، فإن الشباب يحصلون بحق على كل شيء. فهم يستطيعون بشكل خاص الحصول على منافع علاقة شبيهة بالزواج دون أي التزامات: أي علاقة يحصلون عليها، والصحبة والتنظيم المالي المريح لمدخولهم دون أن يتعجب أحد لذلك. ويكون هذا أفضل إذا كانت النساء سعيدات بذلك أيضاً ـ كما كنا نحن دعاة حقوق المرأة نؤمن بذلك في الثمانينات، إن طرقنا في الحياة هي ما كانت المرأة ترغب به، لكن أصبح واضحاً أنهن لسن سعيدات.

لـ «جين أندروز» كل الحق أن تكون منزعجة بشدة. كانت كل أحجار النرد في غير صالحها كما كانت مع «بريدجيت جونز». ولكن اللجوء إلى القتل كان بشكل ما عملاً متطرفاً. ما كانت تحتاج إليه هو مساندة قواعد المجتمع لها، والدفاع عنها حيال الشبان المتعجرفين. لو أن المجتمع يدعونا بالأوغاد وغير المهذبين كما كانوا يفعلون في جيل والدي ويتجنبوننا اجتماعياً، لحصلت عندئذ النساء على الكرامة كي يستطعن السعي وراء رغباتهن لا رغباتنا (نحن الرجال). لكوني رجلاً، أجد نفسي جزءاً من كل هذا. أشعر بالذنب وأرغب أن أقف وأحمي النساء. ربما أستطيع أن أُسكن هذا الشعور بالذنب بتأليف هذا الكتاب.

صوت غير مرغوب به

إن الشعور بالذنب إحساس قوي، وكذلك هو الخوف. هناك سبب واحد يجعل من الأفضل أن يكون مؤلف هذا الكتاب امرأة، أي امرأة، لأن ذلك يحررني من هذا المأزق. وسيكون ذلك ملائماً جداً لأنه من الممكن أن يكون تأليف هذا الكتاب خطراً علي. عندما كنت أمر في مرحلة كان علي أن أقرر فيها إذا ما كنت سأنهي مسودة هذا الكتاب أم لا، كان «نيل ليندون» يكتب مقالات طويلة في «سنداي تايمز» عن تردي مسيرته المهنية بعد أن كتب «انتهاء الحرب الجنسية» في أوائل التسعينات. وكان يقوم حديثاً بإجراء مقابلات على الأثير مع «جون همفريس»[18] ويعيد كل الأحداث: كيف جعله ذلك الكتاب يفقد زوجته، وعائلته، ومهنته وجرده من أمواله. كان يدّعي أن دعاة حقوق المرأة اجتمعوا ضده بهدف التخلص من ذلك المنشق. هذا شيء لا أستسيغ حصوله لي في العالم الأكاديمي.

لكن مجموعة من الوقائع جعلتني أصمم على تأليف هذا الكتاب مهما كانت النتائج. هنالك واقعتان إحداهما أن زميلة من دعاة حقوق المرأة، والتي تؤمن بصدق في المناظرة في تلك الموضوعات، طلبت مني أن أحاضر لطلبتها

obeikandi.com

في المقرر التعليمي للجنسين (ذكر أنثى) لطلاب الجامعة عن نشوء منظوري الخاص حول حقوق المرأة. كان ذلك في وقت كنت قد فقدت الرغبة فيه لتأليف هذا الكتاب لأنني خشيت أنه من الممكن أن يشكل ذلك خطراً على أعمال أخرى لها أهمية لدي.

كانت الجلسات مثيرة للدهشة. سألت الطالبات عن رغبتهن في نظام تعليمي موازي متوازي. قالت النساء الشابات (وجد شابات فقط في ذلك المقرر) نعم، من الضروري وجود محصلة متوازية للرجال والنساء. وإذا لم يتم هذا الأمر فستعاني النساء من حيث عدم الحصول على أفضل الوظائف وأعلى الأجور. لماذا يحتجن إلى تلك المحصلات المتوازية، شاب غبي! لأن النساء يحتجن إلى استقلاليتهن وحريتهن. يجب وجودهن في عالم الأعمال في المجال العام، لا أن يكن حبيسات في بيوتهن أو عائلاتهن. وقد وضعت موجزاً للأفكار التي جرت مناقشتها في الفصل الثالث والرابع والتي تتحرى عما إذا كانت النساء يحتجن ويقدرن حقاً الاستقلالية والنجاح في المجال العام وعما إذا كان «الحط من قدر الحياة المنزلية» الذي روج له دعاة حقوق المرأة شيئاً جيداً للنساء. ربما ما أرادته النساء حقاً، كما أقترح في هذا الكتاب، هو جعل الأولوية للحياة العائلية، وهذا ليس ممكناً لهن الآن. تناقشن معي آخر الأمر وقلن أنه حتى لو أرادت النساء تلك الأشياء الآن، لا يستطعن الوثوق بالرجال. فكلنا يعرف أن أربع زيجات من أصل عشرة تنتهي بالطلاق ـ أي ما يعادل ٤٠٪ ـ وأنه حتى لو أردن حياة عائلية فيجب أن يكن مستقلات. هذه هي طرق الحياة الآن، وحتى لو أردن الرجوع إلى الحياة الماضية فهذا ليس ممكناً. تساءلت لماذا، كونهن شابات مثاليات يذعن إلى مجريات الأمور في العالم عوضاً عن المحاولة لتغييرها كي تكون أكثر ملائمة لهن: لم يكن رد فعلهن ذاته عند مناقشة مشكلات البيئة على سبيل المثال، أو حقوق الحيوان. أومأت بعضهن برأسهن مدركات لذلك التناقض.

أخيراً سألتهن عن الفروقات بين الجنسين (الذكر والأنثى) وإذا كان ذلك عائداً إلى الفروقات البيولوجية. قلن كلهن أنهن لا يظنن الأمر كذلك: كل الفروقات بين الجنسين ترجع إلى أمور اجتماعية وحضارية. على كل هناك فروقات قليلة وهي نتيجة قيام العلاقات الاجتماعية حسب النظام الاجتماعي الأبوي. وقد أوجزت بعض الأفكار التي قدمتها في الجزء الثاني من الكتاب ـ في الفصل الخامس والسادس ـ عن أهمية الفروقات بين الأجناس. وكيف يقترح علم النفس التطوري أنه من الممكن أن تكون العناصر البيولوجية لبعض تلك العوامل ذات علاقة تربوية. استمعت الشابات وناقشن هذا الأمر.

في نهاية الجلسة اقتربت مني شابتان وقالتا أنني قد أثرت أسئلة لم تفكران فيها قط، وأنني قد قدمت لهن أفكاراً لم تخطر على بالهما قبل الآن. شعرت بالتحدي وبالرغبة بمعرفة المزيد. فقالت إحداهن أن الجلسة ساعدتها في الإدراك بأن الأفكار التي كانت تراودها لم تكن خارج الحدود الطبيعية وسألتني عما إذا كان هناك أي مطبوعات أخرى كي تقرأها.

كانت تلك الشابتان السبب الرئيسي الذي جعلني أقرر إنهاء هذا الكتاب وأن أخرج من مخبأي. لو كانت الفتيات تدرسن مقرراً عن الجنس (الذكورة والأنوثة) ولم يكن أي من الأفكار حول الخيارات المتاحة للمرأة ضمن ذلك المقرر، فهناك بالتأكيد خطأ ما. إذا كانت تلك الفتاتان تُمثلان الشابات في مرحلة قبل التخرج في جامعاتنا، ليس لدي أي سبب لأظن غير ذلك ـ عندئذ لا بد أن يكون هناك شيء مفقود في منهاج تعليمهن.

ظهر الحدث الثاني عندما كانت بعض داعيات حقوق المرأة الأكاديميات يُحررن كتاباً حول حقوق المرأة في التعليم في بداية القرن الجديد، أردن آراء من مجالات مختلفة، من ضمنها نقاد حركة دعاة حقوق المرأة. وذلك كي يُظهرن نشاط المناقشة ولكي يزودن الطلاب بمقدمة مفيدة ونقدية في ذلك الحقل. وقد كن على علم أنني

openkandil.com

أؤلف كتاباً عن ذلك الموضوع، لذلك اقترحن علي كتابة فصل في ذلك الكتاب فوافقت على ذلك. أُرسل الكتاب إلى النقاد لمراجعة الكتاب، فكان ردهم أن الكتاب جيد من حيث الموضوع والتوقيت ما عدا الفصل الذي كتبته والذي يجب أن لا يتضمنه الكتاب. كما أن بعض دعاة حقوق المرأة الأكاديميين وضعوا بعض الضغوط على الناشرين كي لا ينشروا آرائي. يبدو أنه يحب أن لا تُسمع بعض الأصوات في المناظرة التعليمية عن الجنس (الذكورة والأنوثة).

كان ذلك على الأقل انطباعي الذي أتشارك فيه مع كاتبة من دعاة حقوق المرأة، «روزالِيند كاورد». التي حضتها أحداث مشابهة على تأليف كتابها «البقرات المقدسات». وهي تروي كيف أنه بالرغم من شعورها بعدم الارتياح حول حركة حقوق المرأة المعاصرة في نهاية الثمانينات، فإن صحوتها أتت في عام 1993 عندما نُشر كتاب «كاتي رويفي»، «الصباح التالي» في بريطانية. وقالت «رويفي» أن العلاقات الجنسية في الجامعات الامريكية لا يمكن وصفها على أن الذكور كانوا المضطهِدين وأن الإناث كن الضحايا. وأن النساء قد يكن في بعض الأحيان جبارات والرجال عرضة للإنجراح. فسخطت عليها داعيات حقوق المرأة في بريطانية واتهمنها بالخيانة، ورفضن الكتاب بالقول أنه ساذج ولا علاقة له بالموضوع. بل وقد احتججن قائلات أن ذلك الكتاب قد جرى تسويقه كطعنة في ظهر حركة حقوق المرأة. تقول كاورد: «جعلني استقبال ذلك الكتاب أُدرك أنه بالرغم من أن دعاة حقوق المرأة البريطانيين أصروا دائماً على أنه ليس هناك رأي واحد في حركة حقوق المرأة، بل آراء متباينة تعالج أمور النساء، هناك بعض المساحات الممنوع دخولها»، وأن آراء بعض دعاة حقوق المرأة لها بعض الامتيازات فوق أخرى.

هذه هي أيضاً الفكرة الرئيسية في كتابي، إن بعض الآراء، وخاصة آراء بعض النساء، لا تُقدر بالنسبة للمربين من دعاة حقوق المرأة. ويبدو أن هناك معتقدات في الجامعات، وفي الدوائر التعليمية والمدارس ووسائل الإعلام يجري استبعادها عن المحكمة قبل أن يتم سماعها. من الممكن أن الوقت قد آن كي نختار نحن المربين بعض البقرات المقدسة.